مجلة العلوم الإنسانية — المجلد 34 -عدد 1 - جوان 2023، ص.ص. 379 - 394

الدلالات النفسية لرسم المنزل لدى أطفال ناجون من مجزرة إرهابية
دراسة عيادية في إطار الاستشارة النفسية

Psychological implications of drawing a home for children who survived a terrorist massacre

Clinical study as part of the Psychological Counseling

تاريخ الاستلام: 2020/11/01؛ **تاريخ القبول :** 2022/01/11

ملخص

إن الدلالات النفسية لرسم المنزل لدى خمس أطفال ناجون من المجازر الإرهابية تبعث مباشرة لآثار الصدمة النفسية بعد أكثر من سنة من تاريخ حدوث المجزرة الارهابية بنواحي العاصمة. والاجتياح الإرهابي لحدود المنزل كان بمثابة اختراق الغلاف الأسري و الغلاف النفسي الجسدي للطفل و فقدان الأمن النفسي و حالة الضغط ما بعد الصدمة. و البقاء في المنزل يثير التصورات الصدمية التي يقاومونها إما بالدفاعات الاكتئابية الهوسية أو بالتناقض الوجداني أو بتقمص المعتدي. هذه الحالات العيادية تؤكد أهمية الوظيفة النفسية للمنزل باعتباره إطارا ماديا و معنويا يدعم الشعور بالذات الآمنة وأن أي ظرف مخل بهذه الوظيفة من شأنه إحداث اختلالات في الفضاء النفسي للطفل.

الكلمات المفتاحية: حالة الضغط ما بعد الصدمة؛ الغلاف النفسي؛ الوضعية الهوسية الاكتئابية .

* كريمة طوطاوي

كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر 2، الجزائر.

Abstract : The psychological meanings of the drawing of the house of five children who survived the terrorist massacres refer to the effects of psychic trauma more than a year after the date of the terrorist massacre in the suburbs of the capital. The terrorist invasion of homes has generated a break-in of the children's family, bodily and psychic envelopes, and a state of post-traumatic stress, which mobilizes either manic-depressive defenses, a strong emotional ambivalence or identification with the aggressor. It follows from this clinical analysis, the importance of the psychological function of the house, it is about a material and symbolic framework which supports the feeling of security of the self, and that any incident compromising this function risks to involve an imbalance in the psychic space of the child.

Keywords: Post-traumatic stress disorder; Manic-depressive position; Psychic envelope.

Résumé : Les significations psychologiques du dessin de la maison de cinq enfants qui ont survécu aux massacres terroristes renvoient aux effets du traumatisme psychique plus d'un an après la date du massacre terroriste dans la banlieue de la capitale. L'invasion terroriste des maisons a généré une effraction des enveloppes familiale, corporelle et psychique des enfants, et un état de stress post-traumatique, ce qui mobilise soit des défenses maniaco-dépressives, une forte ambivalence affective ou une identification à l'agresseur. En découle de cette analyse clinique, l'importance de la fonction psychologique de maison, il s'agit d'un cadre matériel et symbolique qui soutient le sentiment de sécurité du self, et que tout incident compromettant cette fonction risque d'entraîner un déséquilibre dans l'espace psychique de l'enfant.

Mots clés: Etat de stress post-traumatique; Position maniacodépressive ; Enveloppe psychique.

* Corresponding author, e-mail: toutaouik@yahoo.fr

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2023.

I - مقدمة

الأطفال في سن الالتحاق بالمدرسة و قبله بقليل، غالبا ما يميلون لرسم المنزل و حوله فضاء طبيعي يمثل تصورات الطفل لفضائه المألوف والمفتوح على العالم الخارجي. هذا المحتوى المبتذل وإن كان بسيطا في شكله، يشير لمستوى الآلفة بالمكان الذي يربط الطفل بأسرته و ذويه و مدى شعوره بالأمن النفسي و الانتماء الاسري. إكلينيكيا، ظهور منزل في الرسم الحر أو في الرسم الموجه، يحتمل دلالا نفسية متعددة، يمكن الاستناد إليها في طرح فرضيات الكشف العيادي عن جوانب من النمو النفسي و الجسدي و الاجتماعي للطفل، كالراسم الجسدي، نوعية الحدود بين الداخل الخارج، تمثيل الذات، التنظيم الزماني-المكاني، الميل للتواصل الاجتماعي،..

من الناحية النفسية، ينمي الطفل علاقاته بالمنزل باعتباره إطار يحتوي روابط تعلقه بوالديه أساسا فهو محل إشباع الحاجة للحماية و الآمن والحب، فالمنزل يمثل إطار رمزي لاحتواء الطفل الذي يتدرج في نموه لتطوير شخصيته و الاتجاه للمستقبل. لكن التعرض لأحداث إنسانية كارثية كصدمات الحروب أو الارهاب مثلا ، قد يقلب هذا المسار المتصاعد في الاتجاه المعاكس. بالنسبة للأطفال الذين تعرضوا لمجزرة ارهابية في إحدى مناطق الجزائر العاصمة (بلدية بن طلحة) سنة 1997، و عايشوا الهجوم الارهابي ليلا على منازلهم و ذويهم و تمكنوا من النجاة مع اوليائهم لا بد انهم تعرضوا لأسوء خبرة صدمية في طفولتهم. منهم من تعرض منزله للدمار واضطر لهجر منطقته السكنية إلى وجهة أخرى، و منهم من وجد لدى الأقارب بعد تلك الليلة الدموية مأوى مؤقت يحميه وأهله من خطر الموت المريع. وهذا الهجر الاضطراري فور حدوث المجزرة لم يستمر طويلا، فبالرغم من خطر التعرض لتكرار الهجمات الارهابية وعودة تصورات الاضطهاد للأذهان عادت معظم الأسر إلى منازلها مجددا تحت ضرورة متابعة الاطفال للمدرسة أو عدم وجود سكن خاص لكل أسرة على حدى. ومن المؤكد أن المعالم المكانية المألوفة للمنزل تتأثر سلبا جراء الذاكرة الصدمية لأفراد الاسرة ككل، والاطفال هم أكثر من يتأثر بالعودة لنفس الفضاء الذي لم يصمد لحمايتهم أو حماية أوليائهم، الوضع شبيه بالعودة للموت أو إعادة خوض خبرة لقاء الإرهابي من جديد، فالتواجد في نفس المنزل الذي شهد الهجوم الارهابي يثير نشاط الصدمة في العالم الداخلي للطفل، والتماس علامات الخوف لدى الأولياء أيضا يزيد من حدة القلق لديه ويعيد إلى مخيلته صور الاجتياح العنيف الذي وقع شهادة إخفاق الحماية الوالدية و تجاوز امكانيات الدفاع الذاتي للوالدين و للطفل على حد سواء. وإذن نفس الفضاء الاجرامي سيبعث من جديد تصورات الاختراق العنيف للغلاف الأسري و لحدود الذات عند الطفل، خصوصا وأن صور الاولياء كخط دفاع مثالي وأكيد انهارت في ذهنه، فلا يجد من يهدئ من مخاوفه أومن يوفر له ضمان الحماية و الامن النفسي. وما يضاعف مخاوف الأطفال الضحايا أيضا المحيط خارج المنزل بدءا بالشارع و المدرسة، والذي يؤكد تعميم حالة الهلع أو الذعر في كل المنطقة، والراشدون أكثر من يردد أمام مسامع الاطفال أحيانا أخبار التنكيل الإرهابي بالضحايا وتفاصيل المجزرة.

إن المنزل الذي كان رمز الحماية و الاستقرار والحب عند الطفل يصبح معلما يتوعد بالموت، فيثير نشاط الذاكرة الصدمية لدى كل افراد الاسرة و بالأخص الطفل، إذا لم يحسن الاولياء تقديم نماذج التصرف لتسيير الصدمات. وأمام ضعف التغطية الوالدية ،تزداد أعراض الصدمة عند الطفل بتكثيف تصورات عودة المعتدي. وما ظهور المخاوف الليلة و الكوابيس إلا تعبير عن فقدان الأمن النفسي و تكرار سيناريوهات الهجوم الارهابي المحتمل. في الواقع ،هذا الهجوم الاجرامي على

المنزل، ذلك الفضاء الحميمي الذي يأوي الطفل ويحميه من مخاطر العالم الخارجي، يعادل اختراق خطوط الدفاع الاولية واجتياح العالم النفسي للطفل، و سواء تعرض المنزل للتدمير الكامل أم لا، فخبرة الذعر الذي يصاحب الصدمة، يخلف شعورا بهدم حدود الذات النفسية والجسدية وفقدان الوعاء الحاوي للذات ومواضيع التبعية الطفلية. ولاشك أن المحيط الاسري كفيل باحتواء الطفل و تخفيض مستوى اعراضه الصدمية لتؤول تدريجيا للإطفاء، لكن في المقابل قد يحدث أن التواصل الاسري يعرض كل فرد لتثبيت أعراض الصدمة لدى الآخر و يمكن إذن أن تخلف صدمة الطفل على الامد القريب آثارا نفسية متفاوتة الخطورة في مختلف جوانب النمو النفسي و المعرفي و الاجتماعي.

وبحكم رمزية المنزل لدى الطفل والذي يمثل الغطاء الدفاعي للوادين و متانة حدود الذات النفسية و الجسدية ومصدر الشعور بالأمن النفسي وبالانتماء الاسري، نتناول تحليل رسوم أطفال ناجون من المجزرة الارهابية للبلدية بن طلحة، للكشف عن نوعية التصورات النفسية للمنزل التي خلفتها الصدمة. نتطلع لمعرفة أشكال المنزل و الدلالات النفسية التي يحملها لدى هؤلاء الاطفال بعد المجزرة، وذلك لنتبين إن كانت الصدمة غيرت من هذه الرمزية أو أثارت معاني متصلة بتواصل نشاط الصدمة في الحياة النفسية للأطفال بعد حوالي سنة من تاريخ الصدمة. بداية، سنتطرق لمفهوم الصدمة النفسية للطفل ونشير لأعراضها ومآلها، ثم نستعرض أهم التفسيرات التحليلية للرسم عند الطفل، و يلي ذلك عرض التحليل العيادي لرسوم الاطفال الضحايا و ننتهي إلى توضيح نوعية التصورات النفسية للمنزل لديهم.

- **اللوحة العيادية للصدمة النفسية عند الطفل:**

إن أكثر الأحداث المسببة للصدمة عند الطفل تتمثل في العنف بين الأشخاص أو العنف الجسدي أو الجنسي، الحوادث، الكوارث الطبيعية، الحروب، حالات المرض العضوي الخطير(كالسرطان مثلا). مع العلم ان ما يعرف الان بالصدمة عند الطفل ليس الحادث عينه الذي يحدد تطوير الاعراض، لكن هي مرتبطة بسن الطفل و بكمية النزوات النفسية التي يفجرها الحادث في نفسيته و يعرض الأنا لصعوبة الدفاع ولتصريف الكم النزوي بشكل لا يخل بتوازنه الاعتيادي. وأي حادث يصبح صادم عندما يجاوز القدرات الدفاعية للطفل. وقد سبق وأن أوضح فرويد (Freud,1920) مفهوم الصدمة بالصعوبات الاقتصادية للجهاز النفسي الذي يحاول العودة للنشاط الاعتيادي وتحقيق مبدء اللذة، لكن عجز صاد-الإثارة (Pare-excitation) في حماية الأنا من خطر الاجتياح الكمي (خارجيا كان أم داخليا) هوما يشكل العامل الصدمي : فيتعرض الشخص حينها لاختراق الفائض النزوي المدمر ولحالة الذعر أو التصدع النفسي. إكلينيكيا، يتمثل ذلك في لوحة "العصاب الصدمي"(La Névrose Traumatique).

لاشك أن للصدمة انعكاسات خطيرة على نمو الطفل و تصوره للعالم و لذاته: وبناء على حدتها يمكن أن تخرب مؤقتا أو بشكل مزمن قدرة الطفل على الثقة في الآخرين و الشعور بالأمن النفسي وإحساسه بمعنى الاستقلالية، معنى المبادرة و بالكفاءة الفردية. وقد تبينت تير (Terr,1991) في دراستها حول الأطفال المخطوفين، وجود تغير في الإحساسات و تشوهات في التنظيم الزمني لاسترجاع الأحداث الماضية التي سبقت تاريخ الصدمة، والأحداث التالية لها. هذا إلى جانب عدم القدرة على إسقاط الذات في المستقبل. و قام كل من جورون و ريث(Gordon & Reich,1993) بتحديد جملة

من الاستجابات النفسية للصدمة عند الأطفال: أولا، كمية الانفعالات هامة تنتاب النفسية و تؤثر في الأحاسيس، و تتحول كثافتها إلى اضطرابات سيكوسوماتية (Troubles Psychosomatiques)؛ وقد تؤدي إلى فقدان الثقة في الأخلاقيات و المعايير التي تنظم السلوك الإنساني، فقد السلوكيات التربوية، كما تولد سلوكيات عدوانية أو مخالفات شبيهة بالجنوح أو بالاضطراب المضاد للمجتمع، هذا إلى جانب النزعة للتردد وعدم الشعور بالأمن اللذان يدمران إمكانية التوجه نحو المستقبل.

وقد تم تصنيف أعراض الصدمة عند الطفل في الدليل الرابع الامريكي لتشخيص الاضطرابات السيكاترية (DSM-IV,1994) ضمن قائمة من 18 مؤشر للأعراض الصدمية لكنها لم تكن متكيفة للطفل، نظرا لبساطة حصيلته اللغوية و امكانيته في ترميز خبرة "رهيبة" والتعبير عنها كما يحصل للراشد. و تنتظم اللوحة العيادية للصدمة عند الطفل حول اربع محاور: زملة إحياء الذكريات (Syndrome de reviviscence) التي تعيد تنشيط صور حادث الصدمة و الاستجابات الفورية الملازمة لها (حالة الضيق، الكوابيس مرتبطة بالحدث غالبا، اللعب الصدمي (La Jeu Traumatique) الاضطراري أو شبه استحواذي؛ انخفاض فعالية الاستجابة و انكماش (Baisse de réactivité et émoussement) يتضح في مظاهر الانسحاب الاجتماعي و تقلص الانفعالات أو نكوص النمو؛ وأعراض اليقظة المفرطة (Symptômes d’hyperéveil) تتضمن المخاوف الليلية ؛ افراط يقظة ،أو النوم المتقطع دون وجود كوابيس وانخفاض قدرات الانتباه و التركيز.

في الواقع، ليس كل صدمة عند الطفل تتخذ بالضرورة منحى سيكوباتولوجي، فوجود الدعم الأسري والنماذج الراشدة لأنماط الاستجابة للوضعيات الصدمية بإمكانهم امداد الطفل بكيفية احتواء الصدمة منذ بدايتها والتقليص إن لم يكن انطفاء أثارها السلبية في المدى القريب. لكن تعقد الصدمة يتوقف على سن الطفل و الديناميةالاسرية التي يتفاعل فيها في اتجاه تأكيد مخاوفه في عدم اهلية الاولياء لحمايته. لذلك يؤكد بايلي (Baily,2003) على مفهوم الصدمة النفسية لا على اساس الرعب الذي تثيره في الطفل و لكن إدراكه لانهيار تصوراته عن صلابة و مناعة والديه و قدرتهما المطلقة على حمايته. وقد سبقت أنا فرويد في توضيح أهمية الدعم الأسري بالنسبة للأطفال الذين انفصلوا عن والديهم، ونقلوا إلى الأرياف لتجنب الحرب في لندن. وقد تبينت أنهم أقل تحملا للحرب بما أن حدوث صدمة للطفل تعادل في حجمها صدمة الوالدين أو لا تتناسب مع قدرة هؤلاء الأولياء في تحقيق الحماية له بالرغم من الظرف الصادم . بينما هناك أطفال يتحسنون بالرغم من معايشتهم أحداثا قاسية وخطيرة، نظرا للدعم الأسري الاجتماعي والثقافي الذي حصلوا عليه في هذه الظروف القصوى، والحفاظ على الرابط الأسري أو الرابط التعاقدي الذي يدعم الشعور بالأمن النفسي. إن تصاعد أعراض الصدمة عند الطفل يرتبط باستمرار الشعور بخطر الموت على الذات أو على الشخص الذي يتعلق به الطفل. وسواء كان ضحية مباشرة لعنف أو اعتداء حيوي أو شاهدا على اعتداء أو موت شخص مقرب، تظل الحادثة في الواقع النفسي للطفل ككتلة من الانفعالات المقلقة غير المتمايزة وغير محولة رمزيا. مع أن مفهوم الموت غير واضح بالنسبة للطفل قبل7 سنوات على الاكثر، قد تتطور آثار الصدمة المكيسة داخليا، تبعا لعدم اكتمال النمو و نوعية استجابة البيئة القريبة للطفل: فغياب اللغة و القدرة على التعبير عن المعاش الذاتي لدى الطفل، إلى جانب تطوير نظام معقد للتواصل الأسري مع الطفل يعملان على استدامة أعراض الصدمة لدى كلا الطرفين المتفاعلين (الاسرة-الطفل)، بحيث يصبح كل منهما يثير تصعيد العرضية عند الطرف الاخر، وكل الافراد يعملون على تثبيت وتكرار الصدمة، و يبقى أن مصير هذا

الاحتفاء السوداوي المشترك قد يؤول الى انطفاء أثر الصدمة تدريجيا أو إلى مقاومة إنجاز الحداد والدخول في سيرورة سيكوباتولوجية تقترن بتطوير "ذاكرة صدمية"(Mémoire traumatique) تسبب معاناة أسرية بلا حدود. وعلى الصعيد الفردي، تتضح أشكال امتداد أثر هذه الصدمة في شخصية الطفل، من خلال ظهور حالة الضغط ما بعد الصدمة (PTSD) وأنماط التعلق غير الامن (Attachement insécure)، التأثير على السيرورة النفسية (Processus Psychique) و العمليات الفيزيولوجية للنمو خصوصا إن كانت الصدمة مبكرة. بينما تؤثر الصدمات التي تحصل في حدود 2-3 سنوات في فترة الانفصال-التفرد (Phase de Séparation-Individuation)) وتولد صعوبات التحكم في العدوانية أو اضطراب الهوية الجنسية أو انخفاض المهارات الاجتماعية. ويمكن للسيرورة الصدمية (Processus Traumatique) أن تمتد إلى مرحلتي المراهقة و الرشد فتطبع الشخصية بسمات سيكوباتولوجية أو شبه فصامية كأعراض فرط اليقظة والتفكك أو النزوع للانفصال عن الواقع أو اللاواقعية.

- **تفسير رسم الطفل في التحليل النفسي:**

تعد ميلاني كلاين(Klein,1937) أول من استخدم الرسم واللعب في تحليل الأطفال. فمقابل خطاب الراشد الخاضع لتقنية التداعي الحر،أكدت أن الطفل يمتلك القدرة على التعبير عن اللاشعور مباشرة، أثناء الرسم و اللعب اللذان يحملان دلالة رمزية تكشف عن الهوامات (les Fantasmes)، الرغبات و معاش الطفل الذي تم تصعيده وإعلاؤه في إطار علاقة التحويل اتجاه محلله. ويقترح وينيكوت (Winnicott,1979) رسم سكيغل ("Squiggle") للطفل في الاستشارة النفسية، ويمنح الرسم وظيفة تكوين "فضاء انتقالي"(Espace Transitionnel)" تندرج ضمنه عمليات التواصل والنقل الثقافي: فيستعين المحلل بالرسم الذي يتشاركه مع الطفل ويستخدم "الفضاء الكموني(Espace Potentiel) الناشئ بينه وبين الطفل، لتمهيد التعبير عن الموضوع الداخلي المقلق، ويتطلع لتفسير أو مساعدة الطفل على بناء قصة، هي بمثابة الحلم أو "المشروع" الذي يحققه وفق رغبته. فيتواجه بتدخلات المحلل التي تعتبر "خصاء رمزيا لمشروعه، وبإنجاز الموضوع الانتقالي، يتقبل العلاقة و الغيرية، ويستعيد أمنه الداخلي، و تتحرر قدراته على التصعيد و الإبداع.

إذن للرسم دلالات إسقاطيه بالغة الأهمية في الفحص النفسي أو العلاج. فهو يكشف عن مستوى النمو النفسي و الصراعية التي تختلج في العالم الداخلي للطفل، وسنتعرض لبعض هذه الدلالات فيما يلي:

• **قد يؤخذ الرسم على أنه نتاج سيرورة بدائية الشبيهة بعمل الحلم،** حيث تتدخل في إنتاجه ميكانيزمات النقل، التكثيف والتصوير في المشهد الحلمي. هذا الطرح قائم على اعتبار أن الرسم ينتج في إطار علاقة تحويلية نكوصيه تعيد تنشيط تصورات العلاقة بالموضوع الأولي. (Barbey,1996:184,183) الضغط المشدد على القلم أو الخط المكثف والمكرر يدل على التفريغ ، الهجوم، الاستحواذ، التحكم أو متعة التامين النرجسي أمام المحلل الممثل للموضوع المقلق. وجود بعض الآثار على الورقة بدون تتابع يبعث إلى هوام كلية القدرة. الرسم بخطوط مبعثرة ومنوعة دون تحديد موضوع، يعادل تنشيط ميكانيزم النقل الذي يجري بسيولة هائلة لسحب الاستثمار من صورة (تمثل) إلى أخرى. وهو ما يستهل عمل التكثيف فيظهر به، تمثيل واحد في

الرسم يعبر عن سلسلة من التداعيات النفسية.(Barbey,1996:185)

• **وعلى الصعيد العميق للحياة النفسية، يكشف الرسم عن الأغلفة النفسية التي تدعم تمثل الذات و النرجسية** لدى الطفل. وأول من ابتكر مصطلح "الغلاف النفسي" (Enveloppe Psychique) هو أنزيو(Anzieu,2003) الذي استند لمفهوم "الأنا الجسدي" لفرويد (Freud,1895) ،ليقصد به الغلاف الذي يحيط بسطح الجهاز النفسي على غرار الجلد الذي يغطي الجسد ،ويقوم بوظيفة الاحتواء الذاتي، والتحويل الرمزي للنزوات النفسية ذات المنشأ الداخلي والخارجي، كما يعد مسئولا عن ضبط التبادلات بين الداخل/ الخارج، و تنظيم عملية الدفاع عن طريق صاد-الإثارة. و قد استخدم مصطلح "الغلاف النفسي" و"الأنا الجلدي"(Moi-Peau) خصوصا في إطار العلاج التحليلي للتوحد و التنظيمات ما قبل الذهانية (Organisations Prépsychotiques)عند الأطفال، وتعد هاغ (Haag) رائدة هذا المجال. وقد وصفت حدوث النقلة من الأنا الجسدي إلى الأنا النفسي حيث تتطور نواة الفكر إثر استدخال الغشاء الحدي (La Membrane-Limite)الفاصل بين الطفل و جسد أمه. هذا السياق النفسي يمكن استطلاعه من لرسم. في البداية يرسم الطفل خطوطا منعرجة أو ذات انحناء كما لو تنتهي في شكل حلقة أو غلاف حاوي أو شكل وجه غير واضح، بنقاط قد تمثل العيون..، هي خطوط قبل تصويرية (Traits pré-figuratifs) تعادل أول أثر للهوية أو إحساس بالذات. هذه الخطوط تمثل "حركة للذات، قاعدة نرجسية للانا"(Barbey,1996:165) فالخطوط أو النقاط الأولية التي تطرح على الورقة تدل على عمل مكثف لتنظيم الفضاء النفسي و"ستنتظم تدريجيا و باستمرارية أكبر تقود إلى المحاولات الأولى للتصوير الرمزي". (Barbey,1996:165)

• **الرسم يمكن من معرفة العمليات الرمزية**، فأولى محاولات الترميز في رسم الطفل تعد إعادة تمثيل الجسد المشترك بين الأم والرضيع قبل حدوث سيرورة الانفصال-التفرد التي تصبح معادلة للفقد وربما للاكتئاب. والتصوير الرمزي لهذا المعاش المبكر منذ القدرة على تناول القلم، يتمثل في تخطيط حركات "ذهاب –إياب" على الورقة تمثل آثار الرابط بالأم.(Barbey,1996:194) وقد يضع الطفل القلم أمام العجز عن مواصلة الرسم و التعبير عن إحساسه، وهو ما يحمل المعالج عن طريق التقمص الإسقاطي، للرسم في مكانه أو لتقديم تفسير له. و يلعب المعالج حينها دور "الوظيفة الحلمية للأم"، إذ يقدم للطفل تفسيرا أو تصورات هوامية ترمم الخبرة العلائقية المبكرة أم–رضيع. حينئذ، يتبين تطور إمكانية الترميز لدى الطفل من خلال تحويل إحساسات جسدية إلى صور عقلية واضحة.(Barbey,1996:193) بهذا يصبح الرسم مجال إسقاط انتقالي، وعلى خلاف الصورة الفوتوغرافية، الرسم ينجزه الطفل بحركة تخطيطية–نفسية، تبني صورة الموضوع بطابع لاواقعي أو انتقالي ،أو "بين الأنا و ما سوى الأنا". و إرصان هذه المسافة بين الموضوع "الذاتي" و"الموضوع الخارجي "هو إحدى الوظائف المنتظرة من إنجاز الرسم في العيادة التحليلية. (Barbey,1996:195)

• **الرسم حركة للهوام في قلب الصراع النفسي، فهو يمثل مشهد للرغبة وللدفاع ضد الرغبة**. وهوغالبا مرئيا، في صورة حلم أو تمثيل رسم أو لوحة فنية. (Barbey,1996:207) و الهوامات المنظمة للحياة النفسية هي: الهوامات البدائية الأصلية، المشهد البدائي للعلاقة الجنسية بين الوالدين، الإغواء الجنسي، الإخصاء. وكل هذه الهوامات تعد ألغازا بالنسبة للطفل ينظم حولها نظرياته الجنسية. في الرسم

يصور الطفل إحدى هذه الهوامات إلى جانب آثارها على حياته الجنسية، أو بالأحرى استثماراته الشبقية، جسده الجنسي الهوامي، مكانته كشخص وكموضوع رغبة. (Barbey,1996:209) لذلك يعتبر الرسم نشاط مباشر للهوام، يسوق استثمارا نزويا نسبيا، و يظهر كتعبير جسدي-تخطيطي أو تخطيط لموضوع يدرج الطفل ضمن إشكالية فمية، شرجية، قضيبيه أو أوديبية. (Barbey,1996:219)

واستنادا للمنهج العيادي، نتناول بالتحليل رسوم أطفال نجوا من مجزرة إرهابية منذ حوالي سنة. أنجزت هذه الرسوم في أول مقابلة للاستشارة النفسية لهؤلاء الاطفال. و الملاحظ أنه لم يخلو الرسم الحر من تمثيل "المنزل" بصورة تلقائية. ومع أن هناك نوع ثاني من الرسوم يعرف برسم المنزل الذي يكشف عن نوعية الغلاف الاسري والغلاف النفسي والجسدي للطفل (Le Run,2006) و منشأ التواصل مع الآخر و الانفتاح الاجتماعي و الثقافي، قد تم اختيار الرسم الحر بحكم أن الأولوية تتعلق بفتح مجال التعبير الحر أمام الطفل الذي عانى ويلات المجزرة و هو في وضعية صدمية واضحة، ولا داعي لتقييده بمحتوى رسم موجه، خصوصا في المقابلة الأولى. بل المطلوب من المعالج النفسي في كفالته لأطفال ضحايا الصدمات، توفير إطار سند لاحتواء معاناتهم الداخلية التي يعجزون عن تمثيلها رمزيا. و على اعتبار أن الرسم الحر غير مقيد هو إذن "مرآة مباشرة للعالم الداخلي" للطفل.(Picard & Baldy,2011) وتتضح أيضا أهمية استخدام الرسم الحر لبناء و تطوير العلاقة العلاجية مع الطفل، في كونه يعطي مساحة للتعبير الذاتي عن طريق تمثيل تصورات الاشياء بطريقة غير مقيدة تفيد الطفل في التنفيس الانفعالي للتوترات الداخلية، ويتيح فرصة رفع الكف عن سير العمليات النفسية و تحرير التعبير الشفوي عن الذات و الدخول في العلاقة العلاجية، الآمر الذي يحقق تدريجيا نقلة من الصراع النفسي إلى محاولة التخرج باستثمار مواضيع الواقع بشكل ممتع نسبيا.

II- منهج البحث و أداته:

إن البحث في دلالات رسوم الاطفال يقتضي تناول المنهج العيادي الذي يقوم على دراسة كل حالة على حدى. و تتضمن مجموعة الحالات العيادية خمس أطفال نجوا من مجزرة إرهابية التي حدثت سنة1997،على مستوى منطقة بن طلحة بشمال العاصمة. هؤلاء الأطفال تقدموا مع أحد أوليائهم للاستشارة النفسية إثر ظهور أعراض صدمية أو حالة ما بعد الصدمة بعد أكثر من سنة من تاريخ المجزرة. و يتراوح سنهم ما بين 06 إلى 11سنة وهم في المرحلة التعليمية الابتدائية. جميعهم عانوا من أعراض ما بعد الصدمة بالإضافة الى اعراض جانبية: المخاوف الليلية و الكوابيس، التبول اللاإرادي، سلوكيات عدوانية، اضطراب القدرة على التركيز أو انخفاض التحصيل الدراسي،..

واستخدام الرسم الحر مع الطفل ضحية إرهاب يعطي فرصة التعبير الحر للطفل عن المعاش النفسي على الورقة، خصوصا عندما يتعلق الامر بعودة الترددات السلبية لصدمة العنف التي غالبا ما تجرد الطفل من القدرة على إيجاد كلمات يصف بها ما يختلج في عالمه الداخلي. فمن طبيعة الصدمة النفسية أن تورد الضحية عالما من الاحساسات الأليمة و اختبار انفعالات قد يستحيل حتى على الراشد وصفها بكلمات، لآن الصدمة لقاء بالموت يحدث خلالها انشطار بين المعاش الذاتي و رموز اللغة، و فيها يلج الشخص وضعية الالتباس و زوال الحدود. الرسم الحر يمنح للطفل فضاء لإسقاط تصورات الأشياء المدمرة و/أو المتماسكة بعد الصدمة، وضمن مشهد نشط

و/أو سلبي يحقق التنفيس او التفريغ الانفعالي لمعاش الصدمة و لو بصورة نسبية.
وفي هذا الاطار، نتناول في الرسومات الحرة لهؤلاء الأطفال، ما يحتوي على تمثيل منزل و الاطار الفضائي الذي يتم فيه تنصيب المنزل. ونلتمس في كل رسم حر، تصورات الطفل للمكان الذي تعرض لهجوم إرهابي، آثار الذكريات الصدمية التي تتكرر وبأي تغطية دفاعية يواجه الطفل مخاوفه الراهنة، وكل ذلك يؤشر عن مستوى العمل النفسي الذي يقوم به الطفل لاسترجاع الثقة بالذات و الأمن النفسي وإعادة بناء الروابط المألوفة سابقا مع مواصلة سير العمليات النفسية للنمو و الاتجاه نحو الحياة.

III- عرض و تحليل الحالات:

❖ الحالة الاولى: محمود

يبلغ محمود 7سنوات وهو في السنة الثانية ابتدائي. لديه 6 إخوة. اضطرت أسرته بعد الحادث الصدمي للانتقال لمنزل آخر لدى إحدى الأقارب لفترة معينة، ثم عادت لضرورة متابعة الطفل المدرسة. تقدمت أم الطفل برفقته للاستشارة النفسية بعد الحادث بعد سنتين من تاريخ حدوث المجزرة، إثر ظهور كوابيس ليلة يرى فيها جثث الضحايا المذبوحين، وهو في حالة قلق حاد مع عدم القدرة على التركيز في الدراسة. أجريت معه مقابلة أولى تم فيها إنجاز رسم حر، وتوالت حصص الاستشارة النفسية لمدة خمسة أسابيع و بمعدل حصة واحدة في الاسبوع.

في الرسم الحر الأول الذي أنجزه الطفل أثناء المقابلة الأولى، ظهر منزل بألوان في وسط الورقة، إلى جانبه الأيمن زهور صغيرة، و في الجانب الأيسر للمنزل طير ذو حجم متوسط. وفي مقابل المنزل تخطيط جسدي يمثل طفلا يتجه إلى الامام غير بعيد من المنزل. لم يستغرق الطفل وقتا طويلا في إنجاز الرسم لكنه حرص في البداية على استكمال تلوين المنزل الذي رسمه أولا، وانتقل إلى رسم المواضيع المتبقية من لوحته.

وبالنظر إلى الشكل الإجمالي للرسم، وإلى لوحة أعراض ما بعد الصدمة التي تطورت لدى الطفل، يبدو أن الرسم يعبر عن محاولة دفاعية لتجنب تصورات داخلية مقلقة أزيحت أثناء الاستشارة، لتسمح للطفل بالتمسك بموضوع يحميه (داخليا و خارجيا) من اختراق تصورات أو الذكريات الصدمية: المنزل الذي يتوسط مشهد الرسم يمثل صورة الذات، و توسط المنزل للورقة يعبر أيضا عن محاولة الطفل استعادة التحكم في مخاوفه الاكتئابية، ووجود الطير على يسار المنزل يحتمل دلالة الإحاطة أو التوجس من البقاء أومن العلاقة بالآخر و الاستعداد للهروب على طريقة الأحلام السحرية، بالرغم من أن هناك صورة تخطيطية لطفل في مقابل المنزل يتجه ضمنيا للحركة أو التقدم للأمام (وجود خطوط على الأرض مقابل الطفل "النموذجي" تحاكي مثل هذه الحركة التصورية).

هذا المنزل في الرسم يدل على وجود حماية داخلية لدى الطفل يمكنه اللجوء إليها أمام الأخطار الخارجية أو الداخلية المحتملة: نفسيا، عمد الطفل لرسم منزل و التوجه للخارج، وهو واثق من إمكانية اللجوء إليه إن عاد خطر الصدمة "الخيالي"، فتصورات المنزل تعني أنه الحاضن الحاوي و الدفاعي، تماما على غرار صورة الأم و الأب يفر إليهما الطفل عند الخوف أو القلق. وبالرغم من الهروب من المنزل بعد الهجمة الإرهابية، لازال الطفل يحتفظ بالتصورات الدفاعية للمنزل وعدم استنفاذ الموارد النفسية للدفاع الذاتي.

اكلينيكيا، إنجاز هذا الرسم في المقابلة الأولى يعكس بالنسبة للطفل مستوى القلق

الصدمي الذي ينتابه مع تمسك بمواضيع الحماية (الوالدين، المنزل) و يعطي فكرة للمختص عن إمكانيات الطفل الدفاعية ذات الطابع القهري (الإزاحة ،التجنب، النقل خارجا) ،حيث استطاع تنشيطها لتجنب اختراق صاد-الإثارة الداخلي أو الانهيار في الاكتئاب. كما أن وجود تصورات للمنزل (الممثل الرئيسي للحماية الوالدية) ومواضيع بيئة خارجية (الطير، الزهور) هو ما ساعد الطفل إلى غاية المقابلة، على التماسك وعدم الانهيار في القلق الاكتئابي.

في المقابلة الموالية، قدم الطفل **رسما حرا ثانيا** على فترتين: في الفترة الأولى، رسم لوحة شتوية فيها منزل بدون تلوين لكن يبدو دافئا بالداخل، فيه باب وبدون نوافذ. في الجانب الأيسر من المنزل هناك شجرتين ذات أغصان تجاذبها الرياح العاصفة، و في الجانب الأيمن توجد شجرة أيضا ذات تخطيط رفيع جدا و تبدو غريبة كأنها تمثيل لموضوع مقلق كالشبح مثلا. و التخطيط النموذجي لطفل يتجه نحو المنزل وكأنه واجه شيئا مخيفا و يريد الهروب إلى المنزل.

الرسم يشير لعودة تصورات مقلقة، فشكل الطبيعة "المتهورة" يمثل نفسيا وجود تصورات مواضيع داخلية (الأم القديمة أو الأب الصارم) حاول الطفل تجنبها عن طريق ميكانيزم النقل خارجا، فتمثلت في شكل "رهيب" خارج المنزل (و ظهور الشجرة "الشبح" يشير لذلك) و تمثيل عودة الطفل للمنزل يؤكد على تسرب تصورات خوافية (Representations Phobiques) خارجية تدفع به للتراجع و التقوقع في الفضاء المنزلي و الوالدي طلبا للحماية و الامن النفسي. وغياب النوافذ في المنزل يحمل دلالة إنكار دفاعي أو تجنب رؤية الموضوع المقلق.

و في هذا المستوى من النشاط النفسي، يتبين أثر عودة القلق الصدمي في شكل موضوع خوافي و خطير يتمثل للطفل داخليا و خارجيا (في حالة البقاء وحيدا).إن الصدمة هنا أعادت إحياء مخاوف نفسية سابقة التفت حولها ذكريات المجزرة، و أصبحت ذات كمون عنيف في نفسية الطفل، و هو يبحث عن الهروب و التجنب من خلال التمسك بالمنزل باعتباره ممثل للحصن الدفاعي للوالدين.

في الفترة الثانية من الرسم الحر، تناول الطفل الورقة عموديا وأعاد رسم نفس المنزل تقريبا لكن بإضافة نوافذ. و نفس الأشجار ظهرت خارجا مع وجود بعض العصافير الصغيرة جدا على إحدى الشجرتين على يسار المنزل، بينما استبعدت الشجرة الغربية (أو "الشبح") على يمين المنزل بمسافة. في هذه اللوحة توقفت الأمطار.

وقد تغير شكل المنزل قليلا ليعبر عن شعور جزئي بتحصين الدفاع على الحدود من وراء المنزل(باعتبار أن الطفل النموذجي قد فر إليه و شعر بالأمن على نفسه). و ظهرت النوافذ للترقب و ترصد حركة المواضيع المقلقة الخارجية (الشجرة الشبح). كما أن رسم عصافير خارجا يعطي انطباع بعدم الشعور بالوحدة، وبانخفاض القلق الخارجي وما يعادله في الحياة النفسية انخفاض نشاط الإسقاط ونقل الخطر نحو الخارج.

الأمن على الحدود الشخصية (ما يمثله التواجد في المنزل) يساهم في تصعيد النشاط العقلي لضبط العلاقة بالمواضيع المقلقة : فيصبح الخطر محدود ضمن الفضاء النفسي و لا يتدفق للخارج ليصبح واقعا مهددا للاستمرارية النفسية، و جل مخاوف الاطفال المصدومين تتمثل في تنشيط اضطراري للدفاعات الخوافية الهجاسية (Mécanismes Phobo-obsessionnelles) أمام تصورات متكررة يأخذ كثيرا طابع المخاوف الحقيقية، فتولد اضطرابات في الحياة النفسية و الاجتماعية لطفل و بالأخص تؤثر في امكانية استثماراته المعرفية و سيرورة التعلم.

اكلينيكيا، تناول رسم المنزل المقاومة الهوسية الاكتئابية (Lutte Maniacodépressive)التي أثارتها عودة التصورات الصدمية للنشاط، والتمسك

برمزية المنزل في الرسم تعني التمسك بالحاوي الجسدي للذات و بتأكيد حدود الحصن المانعة لاختراق الذات.

❖ الحالة الثانية: نبيل

يبلغ من العمر10 سنوات. و هو في المرحلة التعليمية الابتدائية. تعرض لفقدان عمه أثناء الهجوم الإرهابي على المنطقة ليلا. الطفل كان متعلقا بعمه، وأصبح يعاني من مخاوف ليلية متكررة ومن انهيار مستواه الدراسي. و قد لاحظت أسرته عليه ظهور وساوس إلى جانب حالة قلق ملحوظ و الخوف الليلي خاصة ما دفعه إلى الانعزال وتقليص علاقاته الاجتماعية. تم توجيه الطفل للاستشارة من الفريق الطبي العامل على مستوى مؤسسته التعليمية. كان ذلك بعد سنة من تاريخ حدوث الصدمة.

في الرسم الاول، ظهر المنزل و المدرسة إلى يمينه بطوابق فيها أقسام مخصصة لكل مرحلة دراسة انتقالية (من الأولى إلى الخامسة). و في مقابل المدرسة رسم بعض الأشجار وكأن المدرسة تطل على منظر طبيعي. و الملاحظ أن كل الأقسام و المنزل أيضا رسمت نوافذهم مفتوحة و بنفس اللون الأخضر.

و يمثل الرسم محاولة تنظيم الفضاء الخارجي لسد الثغرات الممكنة لتسرب أي خطر محتمل(الخطر الإرهابي طبعا). و توحيد لون المنزل بلون بناية المدرسة يعني وجود قلق اضطهادي أو خوافي، يدفع بالطفل لحالة من التوتر و التوجس من ظهور الخطر، و هذه الحالة من الذعر متواصلة و نشطة سواء في المنزل آو في المدرسة.

اكلينيكيا، يعتبر ذلك مؤشر على خطورة مستوى القلق الذي يهدد بتصاعد التصدع الصدمي في حياة الطفل، مع أنه يتمسك بالعالم الخارجي من أجل التحكم في "الموضوع المعتدي أو المضطهد" هو يعيش حالة من الحصر القصوى و فقدان الدعم الخارجي لتأمين الحماية و الدفاع عن الذات. لازال الطفل تحت وقع الصدمة النفسية و قد تراكمت فيها مخاوف عميقة تهدد استمرار صلة الطفل بالواقع لذلك هو و ينصب دفاعات الوضعية الهوسية الإكتئابية (Position Maniacodépressive): فالفضاء الخارجي بما يحتويه من منزل و بناية المدرسة (بما فيها من صور راشدين بإمكانهم توفير شعور نسبي بوجود مواضيع تحمي و تدفع الخطر عن الطفل) لم يعد موثوقا و لا يوفر أدنى شعور بالأمن على الذات، لذلك هذا الطفل فقد التصورات الإيجابية للمنزل و للأولياء الذين يستطيعون حماية الطفل في حالة خطر، و لم يجد في الوضعية النفسية الراهنة ما يستعين به للدفاع أمام تصاعد الإسقاط المكثف للمخاوف الداخلية إلى الخارج. و اصبح بذلك يترقب بقلق حاد عودة المعتدي أو الإرهابي (والمنظر "الطبيعي" الذي تطل عليه المدرسة هو في الواقع، مستوى لترقب قدوم أو عودة الإرهابيين).

في الرسم الثاني، يحتل المنزل وسط الورقة و تظهر النوافذ مفتوحة وبلون أكثر هدوء والإضاءة بارزة أعلى السقف. على كلا جانبي المنزل رسمت أشجار و زهور. بدء الطفل يستعيد التحكم في القلق و نشاط الإسقاط المكثف انخفض أيضا في الحصة الثانية للاستشارة، مع أن المخاوف الليلية لازالت تتكرر لدى الطفل إلا أن اللجوء لتمثيل الإضاءة يدل على استعادة الثقة في فضاء المنزل وفي حماية الاولياء له. نفهم أن قلق الاضطهاد انخفض بشكل ملحوظ مقارنة بالرسم الأول حيث امتد إلى الفضاء الخارجي بأكمله.

في الوقت ذاته يتجه الطفل إلى الاستعادة التدريجية لحدود الذات الآمنة و الثقة في الذات وإمكانياتها أيضا، فالخصائص الشكلية للمنزل في هذا الرسم تؤكد أن الطفل استعاد الثقة في قدرة الاولياء بالأخص على حمايته، بعد أن تخرج (ولو جزئيا) من

الوضعية الهوسية (Position Maniaque)التي اضطرته للجوء لدفاعات مهولة و مكلفة اقتصاديا في حياته النفسية: أصبح الطفل أكثر إدراكا بعجزه الطبيعي – بحكم مرحلة النمو الطفلية- و حاجته لحماية والديه أولا و كل من يدعمه في مجتمعه المدرسي ثانيا.

الرسمين قدما مؤشرين اكلينيكيين هامين: المؤشر الأول مثل خطورة حالة التصدع الصدمي (Sidération Traumatique) و تكثيف الدفاع الإسقاطي في العالم الخارجي، حيث فقد الطفل الشعور بالأمن النفسي في منزله و خارجه أيضا، و فقد الثقة أيضا في الحدود الشخصية وفي الصور الوالدية الدفاعية. وتنظيم الدفاع بالإسقاط المكثف أثار حالة من الحصر الحاد و الترقب بميكانيزمات وسواسية لردع عودة الخطر الإرهابي مجددا، وهو ما يصف الدفاع عن ريق تنصيب الوضعية الهوسية الاكتئابية. أما المؤشر الثاني فيوضح كيفية انخفاض حدة حالة الذعر الأولى من خلال التعبير التصويري للمعاش الذاتي للطفل، وعليه يتبين ما للرسم من أهمية في تحقيق تنفيس أو تفريغ انفعالي للمعاناة الصدمية للطفل. لذلك يعد الرسم تقنية تنفسية و علاجية في معظم أشكال اضطرابات الطفل.

❖ **الحالة الثالثة: إبتسام**

تبلغ من العمر6 سنوات اتصلت بالاستشارة النفسية برفقة خالتها بعد سنتين من تاريخ حدوث المجزرة، كان ذلك بسبب مخاوف الانفصال عن الأم و رفض المدرسة.

في الرسم الأول، ظهر منزل بباب كبير و نافذة واحدة في مركز المنزل. على يمينه شجرة و على يساره زهرة صغيرة جدا و بعض الأعشاب الخضراء أمام المنزل رسم في شكل خطوط عمودية صغيرة أيضا.

ضمنت الطفلة رسم المنزل تصوراتها للعلاقة بالأم خاصة، الباب و النافذة المغلقين، وتأكيد التلوين بالأحمر على أجزاء من المنزل (السقف و الباب) يشير لوجود انفعالات مقلقة تثير توترات علائقية بالموضوع الأمومي و تنشط اتجاهه النزوات العدوانية أو التهديد بالهجر.

وفي الرسم الثاني، ظهر منزل مشابه للرسم الأول لكن لونته الطفلة وتركت الباب و النافذة المفتوحة دون تلوين. ورسمت بنت أعلى المنزل بدون أطراف عليا. هذا الرسم يحتمل بشكل صريح دلالة التوترات العاطفية الحاصلة بين الأم و الطفلة: هناك حركة التناقض الوجداني حيث يحصل التجاذب العاطفي بين الطفلة والأم، وغياب الأطراف العليا رمزية لعدم الاحتواء الأمومي للطفلة، فتعيش الطفلة مخاوف بسبب الشعور بقلق الإهمال أو الرفض أو البرود العاطفي أو التهديد بفقد حب الأم . و في المقابل، استخدمت ألوان قاتمة (الأزرق و الأحمر) في تلوين المنزل، لتدل لاستمرار حركة النزوات العدوانية الكامنة اتجاه الأم.

يبدو أن الطفلة تتمسك بالمنزل و القرب من الأم خاصة و ترفض الذهاب للمدرسة نظرا لمخاوف ذات طابع إرهابي: الخارج مفعم بالمخاطر و المنزل يجسد وظيفة الحصن من الأخطار. و إصرار الأم على ذهاب ابنتها إلى المدرسة، استقبلته الطفلة على أنه قلة اهتمام و نقص حب و تعريض لمخاطر خارجية، لذلك ظهرت أعراض قلق الانفصال و الرفض المدرسي لدى الحالة.

❖ **الحالة الرابعة: محمد**

محمد يبلغ من العمر11 سنة هو في السنة الخامسة من الطور الاساسي، لديه أخ أصغر و قد تعرض للهجوم الارهابي واضطر للهروب مع أسرته ثم العودة إلى

المنزل بعد أيام من تاريخ المجزرة. اتصل الطفل مع أمه بالاستشارة النفسية بعد حوالي سنتين من تاريخ حدوث المجزرة بعد أن ظهرت عليه أعراض ضغط ما بعد الصدمة من كوابيس و حالة حصر مستمر و توترات في العلاقة مع أفراد أسرته و تراجع ملحوظ في الدراسة.

الرسم الأول الذي أنجز في المقابلة الأولى من الاستشارة تضمن منزل كبير ذو طابقين وشبيه بالذي يسكن فيه، عرض فيه مشهد فزع الأشخاص و محاولة الهروب من الإرهابيين. منهم من خرج إلى الشارع يجري فرارا فيقابله إرهابي فيقضي عليه، منهم من كان في المنزل يبحث عن بقية أفراد الأسرة للفرار مع بعض، و أدرج الطفل في جانب المنزل غرفة فيها تمثيل لأم تتجه لأخذ رضيعها من المهد فأدركه مذبوحا.(و هذه حادثة حقيقية لم يشهدها الطفل لكنه علم بها عن طريق تناقل الأخبار في الأسرة عن الضحايا بعد تلك الليلة الدموية الرهيبة للمجزرة) الشارع يتخذ لونا أسودا دمويا، وحتى محاولة الانتقال لتصورات "حية" من خلال رسم الأزهار على جانب الطريق لم تفلح من اختراق النزيف الدموي الذي خلفه رعب حادث الصدمة: رسم الطفل بعض الزهور للتحكم في القلق الداخلي لكنها سرعان ما اتخذت شكل راسم جسدي بشري، فتسارع تدفق الذكريات أو التصورات الصدمية تجاوز إمكانية التحكم الذاتي أو محاولة إزاحة صور الماضي الأليم وإدراك الواقع المنفصل "زمنيا" عن واقعة المجزرة. الرسم إجمالا يشير إلى عودة أثر الصدمة للنشاط مجددا والذكريات الصدمية تملؤ حياة النفسية للطفل و تستدعي الدفاعات الخوافية الحادة أو ذات طابع الاضطهاد: الطفل حاليا يعش فترات القلق الخوافي أو الاكتئابي الحاد لدرجة أن يأخذ المنزل طابعا اضطهاديا.

الرسم الثاني الذي أنجز في المقابلة الثانية للاستشارة النفسية، يتحول من المشهد الدرامي المأساوي الى مشهد حيوي مفعم بتصورات انفعالية إيجابية: يرسم الطفل منزل واسع بدون طوابق و بداخله طفل يحمل أزهار في كلتا اليدين و ملامح الوجه أكثر سرورا. و خارج المنزل توجد أشجار على يمينه ويساره، وهناك حنفية مفتوحة تضخ الماء للشجرة و للأزهار. ينفتح المنزل على الطريق بدرج صغير، يشير للرغبة في الانطلاق إلى المكان الخارجي بدون أي تصورات خوافية، وعلى جانبي الطريق زهور أيضا.

المشهد على اللوحة مريح و مملوء بالتصورات الربيعية الجميلة التي تدل على محاولة إجراء نقلة "خيالية" يعيد فيها الطفل تصور تواجده في مكان آمن ينتقل فيه من الخارج إلى المنزل و من المنزل إلى الخارج دون علامة تثير أدنى شعور بالقلق. هذا الرسم يحمل دلالة دفاعية ذات نمط سحري. اللجوء للخيال و إعادة بناء محتوى الواقع الأليم في صيغة تثير الهوامات و تشجع على البقاء و الاستمتاع بالحياة، مثل هذه الدفاعات ذات الطابع الهستيري تؤكد أن الطفل يقاوم القلق الخوافي أو الاكتئابي بإنتاج هوام على نقيض التجربة القصوى للصدمة (وهوما سبق و أن ظهر في عملية التفريغ على مستوى الرسم الأول)، وهي دفاعات انفعالية إيجابية للأسف لا زالت هشة و مؤقتة بالنظر إلى شفافية شكل المنزل الذي حوى الطفل بالأزهار وهي نفس الأزهار الموجودة خارجا.

إكلينيكيا، هذه النقلة الخيالية التي تمت بالدفاع أمام الواقع عن طريق الهوام تولدت نتيجة العلاقة العلاجية في بدايتها و التي احتملت تجاوبا من طرف الطفل الذي يمر بمرحلة اكتئابيه يحتاج فيها إلى موضوع سند خارجي لتجاوزها أو على الأقل للتحكم في عودة التصورات الصدمية و الذكريات الاليمة المختبرة منذ سنتين. وهي تعود الآن تحت ضغط نشاط البلوغ الذي يتهيأ له الطفل.

يمكن القول أن الطفل يعيش وضعية هوسية اكتئابيه يحاول من خلالها التحكم في

عودة التصورات الصدمية المرعبة، من خلال بناء تصورات مضادة تحمل دلالة الهروب الهستيري من الخواف أو الاكتئاب عن طريق الحلم السحري. ومن الواضح أيضا أن بداية البلوغ استعجلت عودة أثر الصدمة النفسية السابقة، وهو ما أدى أيضا لرصد الدفاعات بأعراض الصدمة التي يعانيها الطفل، وهي تغطية دفاعية لحماية الأنا من التصدع الصدمي، إلى جانب ضغوط مرحلة المراهقة التي ينتقل إليها الطفل تدريجيا. كمية العمل النفسي في حياة الطفل الداخلية هائلة: فالبلوغ الذي يقتضي عمل مضاعف لإدماج النزوات الجنسية و بناء وضعية جديدة للراشد، و الهشاشة النفسية عند الطفل والتي ارتبطت قريبا من تاريخ الخبرة الصدمية العنيفة، ما زاد من ضعف الأنا واستجداء الدفاعات عن طريق تطوير الأعراض الصدمية.

❖ الحالة الخامسة: طاهر

يبلغ من العمر10 سنوات، يتابع السنة الخامسة من الطور الابتدائي. اتصل برفقة أمه بالاستشارة النفسية إثر تطوير أعراض حالة الضغط ما بعد الصدمة تتضمن: الأرق، السلوكيات العدوانية، التبول اللاإرادي و فقدان شهية الأكل. هذه المعاناة الصدمية ظهرت بعد سنة من تاريخ حدوث المجزرة الارهابية.

في الرسم الأول، المشهد يغلب عليه الطابع الحركي، فيه تصورات للاعتداء و مقاومة الاعتداء أو محاولة الدفاع الذاتي. الطفل في وضعية مقاومة نشطة يحاول فيها الدفاع عن الحدود الشخصية (المنزل غير مهدد الظاهر أنه استدخل مواضيع والدية محمية و لا يريد أن تتعرض للخطر) هناك إسقاط أو استبعاد للخطر عن المنزل حماية للمواضيع الوالدية) التعلق المثالي بالصورة الوالدية جعله يتقمص وضعية نشطة يدافع بها عن منزله الذي يحوي و يحمي والديه و يقاوم من أجل مواضيعه المثالية حماية لها. هناك حركة دفاعية منظمة (طائرات تقصف مواقع ارهابيين في الجبال وهناك اطباء يسرعون لتضميد الجراح، أو حمل جثث الموتى و الدمار). الطفل طور استجابة أمام العنف الارهابي من خلال تقمص المعتدي، ومن خلال تضخيم الذات المثالية لتجنب الانهيار كضحية أو في الاكتئاب الحاد. هو يتقمص وضعية الدفاع الهوسية الاكتئابية (Position Défensive Maniacodépressive) لحماية الحدود و يرغب في إصلاح المواضيع المدمرة (الضحايا). الظاهر أنه يشعر بالذنب ولديه شعور مبكر بالمسؤولة، كما يبدو منتبه جدا للأخبار التي يتناقلها الراشدون عن المجزرة. لذلك هو يعيش حالة استنفار للدفاعات عن الذات و الحدود (تقمصات نشطة (identifications actives) في مواجهة المعتدي لتجنب الوقوع كضحية ،الطفل يرفض تمثل وضعية الضحية السلبية) .

في الرسم الثاني يكررالطفل رسم نفس الإطار الفضائي و بنفس التنظيم المكاني على الورقة، لكن دون استحضار الصور الإرهابية للدمار أو الحرب، وبدلا عن ذلك أزاح التصورات الصدمية لمشهد الرسم الأول و استبدلها ببعض الأزهار و بعض الطيور ظهرت في الأفق مع وجود نفس المنزل.

هذا الرسم يدل على إنجاز عمل دفاعي قهري يتمثل في إزاحة الموضوع المقلق عن بقية الروابط النفسية و استعادة التحكم في الانفعالات الصدمية أو القلق الداخلي الذي انخفض بشكل ملحوظ ليترك المجال لتسرب تصورات اكتئابيه خفيفة. و يشير ذلك لمحاولة الاستبعاد التام للخطر، فإجراء عملية تنفيس عن المعاش الداخلي في مشهد الرسم الأول، استهلت عودة النشاط النفسي إلى الاستقرار مع محاولة إعادة بناء الواقع "المألوف" بعيدا عن هاجس الصدمة.

الرسم الثالث (رسم لافتة او ما يشبه العلم الوطني) يحمل دلالة الهوام في صيغته الرمزية المشتركة: كأنه تحقق النصر بعد الاستماتة في الدفاع أمام العدو .من الواضح

أن الطفل مشبع بالقيم الوطنية و وجود تصورات مثالية للوالد الذي يحمي و يقدم للطفل طرق التواجد و التفكير والتعامل في الوضعيات القصوى، جعل الطفل يتقمصه بافتخار، ومثل هذه التصورات للاب تحمي العالم الداخلي للطفل من التفكك الصدمي (Dissociation Traumatique)، و تساعده على استعادة الاستقرار نسبيا. والطفل بهذا الرسم يؤكد على عودة النشاط "الخيالي" الممتع و نوازع الحب إلى عالمه الداخلي بعد تقمص وضعية نشطة و عنيفة في مواجهة "العدو".

IV- الخاتمة:

المنزل كإطار مادي و رمزي يدعم وظيفة نفسية خطيرة الأبعاد بالنسبة للطفل، فهو يمثل فضاء بسط و استدامة الروابط بالصور الوالدية الحامية و المحبة التي تملء الطفل بحب الذات وتنمي لديه الاتجاه الايجابي نحو الحياة. ولا شك أن الهجمات الإرهابية التي دمرت الأحياء من الأسر و هدمت المنازل وسفكت الدماء بوحشية لا نظير لها تظل خبرة صدمية يصعب تجاوزها خصوصا بالنسبة للأسر الضحايا و الأطفال الذين شردوا واضطروا لهجر مساكنهم إلى أماكن أكثر أمنا. وبالرغم من النجاة من الموت، يصبح التواصل في الاسر أو المتبقين منها مشحون بالقلق و بتصورات الخراب و الاكتئاب. فالصدمة أثرت على الجميع سواء الأسر التي فقدت شخصا منها أو الأسر الناجية التي شاهدت جثث الضحايا أو اختبرت خطر الهروب للبقاء بشتى الأساليب و تحت الظلام الدامس لتلك الليلة الدموية. و بغض النظر عما يحصل في تصورات الراشدين الناجين، فإن أطفالهم يشعرون بنفس التوترات التي يعيشها الأولياء، كما تظل تلك الخبرة الصدمية نشطة سلبيا في العالم الداخلي للطفل قد نصل حد انقطاع الشعور بالأمن بالرغم من وجود الأولياء . في كل الأحوال ، العودة للمنزل الذي شهد الحادثة الصدمية أو إدراك حجم الأضرار التي لحقت به بعد مدة من تاريخ الحادثة، مع عدم استقرار الاوضاع الأمنية في البلد آنذاك، كل ذلك يشكل ظرفا مقلقا لكل الآسر الناجية وعاملا مصعدا للمخاوف من هجمات لاحقة خصوصا في مخيلة الاطفال، الأمر الذي يدفع بالعمل النفسي لاستنفار دفاعات و تكثيف استراتيجيات او موارد داخلية لحماية الذات من الاخطار الارهابية المهولة.

إن الدلالات النفسية لرسم المنزل تبعث مباشرة لآثار الصدمة النفسية على الطفل بعد أكثر من سنة من تاريخ حدوث المجزرة الارهابية ببلدية بن طلحة بنواحي العاصمة. فالاجتياح الإرهابي لحدود المنزل كان بمثابة اختراق الغلاف الأسري و الغلاف النفسي الجسدي للطفل على حد سواء. وانجر عن هذا الاختراق فقدان الأمن النفسي جراء انهيار تصورات الحصن المتين الذي يأوي وحدة الأسرة ويعزز شعور الطفل بالانتماء الأسري. و بالرغم من النجاة من المجزرة، ظل بعض الأطفال تحت وقع الصدمة و تطورت اعراضهم لحالة الضغط ما بعد الصدمة. ومع أن أشكال رسوم المنازل لم تتأثر للتدمير الارهابي، إلا أنها لم تعد أمنة، البقاء في منزل يذكر بالليلة الدموية جعل الاطفال يعيشون باستمرار عودة التصورات الصدمية و التي يقاومونها بالدفاعات الهوسية الاكتئابية أحيانا بتكثيف دفاعات خوافية هجاسية (Défenses Phobo-Obsessionnelles) تدفع الطفل للتمسك بالمواضيع الداخلية و الالتجاء للمنزل كمثل للحضور الوالدي الآمن ، أو بالنكوص لإشكالية الحب-الكراهية للموضوع الأولي (خصوصا عند الاناث) باعتبار أن الصدمة أعادت تنشيط الشعور بالذنب اتجاه الأم الداخلية، جراء حركات التناقض الوجداني الذي تستهدفها، حيث أن المنزل يأخذ دلالة قبول-رفض التقرب من الأم الداخلية ، و أحيانا تثير الصدمة دفاعات مثالية تؤدي لتقمص مثال الأنا الوالدي لمواجهة المعتدي و هي بذلك وضعية

ممثلة للمقاومة الهوسية(Défenses Maniaques) في جانبها التصعيدي للسيرورة النفسية.

في النهاية، هذه الحالات العيادية تؤكد أهمية الوظيفة النفسية للمنزل باعتباره إطارا ماديا و معنويا يدعم الشعور بالذات و حدودها الآمنة ، كأنه غلاف جسدي و نفسي للذات يحصن حدودها من أي خطر خارجي أو خيالي. كما ينمي الانتماء والتماسك الأسري لدى الطفل، و أن أي ظرف مخل بهذه الوظيفة النفسية أو الرمزية من شأنه إحداث اختلالات في الفضاء النفسي للطفل. وبالتالي إحداث انزلاقات نحو تطوير مختلف الأشكال السيكوباتولوجية للطفولة.

الملاحق:

رسوم الحالة الأولى :محمود

(1)

(2)

(3)

رسوم الحالة الثانية: نبيل

(1)

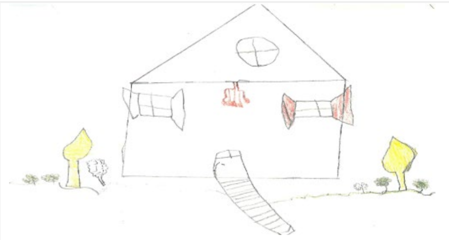

(2)

رسوم الحالة الثالثة: ابتسام

(1)

(2)

رسوم الحالة الرابعة : محمد

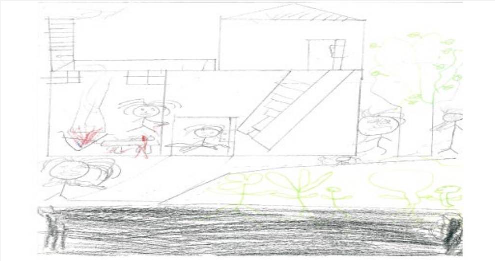

(1)

(2)

رسوم الحالة الخامسة: طاهر

(1)

(2)

(3)

المراجع

1. American Psychiatric Association (1994), *DSM-IV (Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorder)*, Washington: American Psychiatric Press .

2. Anzieu, Didier (2003), *Les Enveloppes Psychiques*, Paris : Dunod .

3. Baily, Lionel (2003), "Les syndromes psycho-traumatiques chez l'enfant", In Lachal C., Ouss-Ryngaert L., & Moro MR. *Comprendre et soigner le trauma en situation humanitaire*, Paris : Dunod, pp. 193-202 .

4. Barbey-Causse, Loïse (1996)," Perspectives métapsychologiques sur le dessin transférentiel chez l'enfant", In Anzieu A., Barbey-Causse L., Bernard Nez J. & Daymas Lugassy S., *Le Travail du dessin en psychothérapie de L'enfant*, Paris: Dunod, pp. 161-223.

5. Freud, Sigmund (1895) , "Esquisse pour une psychologie scientifique", In *Naissance de la Psychanalyse*, Paris: PUF, 1986 .

6. Freud, Sigmund (1920), "Au-delà Du Principe de Plaisir", In *Essais de Psychanalyse,* Paris : Payot, 1983 .

7. Klein, Mélanie (1937), *La Psychanalyse des Enfants*, Paris : PUF, 2004.

8. Le Run , Jean-Louis (2006)," L'enfant et l'espace de la maison", *Enfances & Psy,* 33(4), pp.27-36.

9. Picard, Delphine & Baldy, René (2012), *Le dessin de l'enfant et son usage dans la pratique psychologique*, Visité le 03 Mars 2020, https://www.researchgate.net/publication/269558269

10. Terr , Lenore. C. (1991), "Childhood traumas: An outline and overview", *American Journal of Psychiatry*, 148, pp.10-20. .

11. Winnicott, Donald-Wood (1979), La consultation thérapeutique et L'Enfant (translated from English by Cl.Monod), Paris: Gallimard**.**